



مركز البحوث والدراسات القرآنية
جامعة بايرو، كنو - نيجيريا



مجلة

الماهر

في الدراسات القرآنية

ISSN: 2505-0583

ISSN 2505-0583



9 772505 058008 >

© Copy Rights 2016

مجلة علمية حولية تهتم بالبحوث والدراسات القرآنية الإصدار الأول، يناير 2016م - ربيع الأول 1437هـ

مركز البحوث والدراسات القرآنية، جامعة بايرو، كنو- نيجيريا



مجلة

المأهر

في الدراسات القرآنية

مجلة حالية تهتم بالبحوث والدراسات القرآنية. الإصدار الأول، يناير ٢٠١٦م / ربيع الأول ١٤٣٧هـ

وصف القرآن الكريم في بردة الإمام البوصيري: عرض وتحليل

إعداد

د. عيسى ألبى أبوبكر و د. عبد الرشيد محمود مقدم

قسم اللغة العربية، جامعة إلورن، إلورن قسم اللغة العربية، جامعة إلورن، إلورن.

abdurrasheedmahmoudmukadam@yahoo.com +2348032096799

isaalabi2003@yahoo.com +2348036501786

مدخل:

إنَّ القرآن الكريم كلام الله، أنزله-بلسانٍ عربيٍّ- كاملاً في السماء الدنيا، ثم أوحى به إلى رسوله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم-منجماً حسب الأحداث والوقائع-عن طريق الأمين جبريل عليه السلام، وهو معجزة خالدة تثبت وتصدق للنبي الأمي النبوة والرسالة، وهو مهيم على جميع الشرائع والمثل التي جاءت قبله صلى الله تعالى عليه وسلم، ويتميز عن جميع الكتب السماوية بالتعبّد بمجّده تلاوته، والتشفي به من الأمراض البدنية والنفسيّة. وهو سهل الألفاظ، وراقي المعاني، ورائق الأسلوب، وجميل البيان، والموجز من دون اختلال، والمطنب من دون ملال، والأخذ بمجامع القلوب مع قوة الانسجام والوحدة العضوية، والشامل للقضايا الكونية مع التساير لكلّ عصر وزمان، وتزويد الحلول الناجحة لكلّ ما قد يتعرّض له الكون من مشاكل ومعضلات، وهو مصدر أصيل استوْجِدَتْ منه جميع العلوم والفنون، ومنبع فيّاض للقيم الإسلامية والمثل العليا تتواصل عطاءاته بلا انقطاع. وقد تحدّى الله تعالى بأقصر سورة العقلية العربية النادرة فقصرت عجزاً عن الإتيان بمثله وخضعت لحسن فصاحته وبلاغته؛ ولعلّ من هذه العوامل المتقدّمة وغيرها استلهم الكتاب والشعراء العرب أفكارهم وتلهّبت مداركهم، فأنبروا بوصف هذا القرآن الكريم من حيث إعجازه العلميّ واللغويّ والأدائيّ. وكان الإمام البوصيري من بين الشعراء الذين كرّسوا مواهبهم العلميّة والأدبيّة في خدمة هذا الكتاب المجيد، وإبراز مزاياه كما بدت هذه الظاهرة واضحة في وصف القرآن في بردة المديح التي تعدّ رائعة من روائع ما عرفه الأدب العربي في كلّ العصور. وهذه الورقة تحتوي على النقاط التالية:

(١) التعريف بالإمام البوصيري.

(٢) بردة المديح ومناسبتها.

(٣) عرض الأبيات في وصف القرآن الكريم.

(٤) دراسة الأبيات مع التحليل.

(٥) الخاتمة.

(٦) الهوامش المراجع

١/ التعريف بالإمام البوصيري:

هو الإمام شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن تحسن بن أبي سرور بن حيان بن عبد الله بن ملاك الصنهاجي؛ وهو من أسرة ترجع جذورها إلى قبيلة "صنهاجة" إحدى قبائل البربر. التي استوطنت الصحراء جنوبي المغرب الأقصى^(١).

شهد نور الحياة يوم الثلاثاء سنة (608هـ)، الموافق 6/مارس/1213م بقرية دلاص إحدى قرى بني سوييف من صعيد مصر^(٢)؛ وهي قرية أمه، ونشأ بقرية "بوصير" القريبة من مسقط رأسه؛ ولذلك اشتهر بالبوصيري نسبة إليها. نشأ وترعرع تحت جوف أسرة فقيرة دفعته وهو في ريعان العمر إلى أن يطلب لنفسه عملاً يزاوله لكسب المعيشة، فاتخذ الكتابة والنسخة مهنة لكونه جيد الخط. فكان يكتب على الألواح التي توضع على شواهد القبور^(٣). كما أسس كتاباً يعلم فيه الصبيان القرآن الكريم، ولموهبته الشعرية كان يتكسب بالشعر عند ما تقدم به السن حيث كان يمتدح الأمراء والوزراء بأشعاره فتغدق عليه العطايا.

حفظ القرآن الكريم في طفولته-شأن غيره من الأتراك- ثم تلقى العلوم العربية والأدبية، وتعلم عدد من أعلام عصره، وعني بقراءة السيرة النبوية العطرة، ومعرفة دقائق أخبار النبي صلى الله عليه وسلم. كما درس العلوم الدينية بمسجد الشيخ عبد الظاهر عند رحلته إلى القاهرة، وله إمام شديد بالفقه الإسلامي الأمر الذي أدى إلى أن تعرض إليه وظيفة الحسبة^(٤) التي لا تسند إلا لمن له ولوع بمبادئ الفقه الإسلامي، وعمل كاتباً ببليس بمحافظة الشرقية بمصر العربية.

كان صوفيًا جليلاً أخذ الطريقة الشاذلية عن أبي العباس المرسي خليفة أبي الحسن الشاذلي. ولازمه ملازمة شديدة، وقد ربطت بينهما في أول وهلة- أصرة الود والصحبة.

نظم البوصيري الشعر منذ حداثة سنّه، وله قصائد كثيرة تنسّم بالرصانة والجزالة وجمال التعبير ورهافة الحسّ وقوة العاطفة؛ وهي متنسّعة الجوانب ومتنوّعة الأغراض منها ما كانت الشعر الاجتماعي والشعر الهجائي والشعر التوسلي والشعر المدحّي، ويتمثل الأخير معظم أشعاره؛ فاشتهر بالمدائح النبوية التي ذاعت شهرتها في الآفاق وتميّزت بروحها العذبة، وعاطفتها الصادقة، وروعة معانيها، وجمال تصويرها، ودقّة ألفاظها، وحسن سبكها، وبراعة نظمها، فكانت بحق مدرسة لشعراء المدائح النبوية من بعد، ومثالاً يحتذى به الشعراء لينسجوا على منواله، ويسيروا على نهجه^(٥)؛ ومن أمثال مدائحه النبوية وأشهرها "القصيدة المضربة في الصلاة على خير البرية" و"القصيدة المحمدية" و"الهزجة" و"بردة المديح" التي تعتبر أفضل المدائح النبوية بعد قصيدة كعب بن زهير بن أبي سلمى الشهيرة^(٦) بـ"بانت سعاد" التي مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم.

توفي البوصيري رضي الله عنه بالاسكندرية سنة (695هـ) الموافق (1295م) عن عمر بلغ سنّة وثمانين (86) عاماً^(٧).

٢/ بردة المديح ومناسبتها:

كان البوصيري في بعض تجاربه الشعرية يمدح الوزراء والعظماء والأمراء فينال منهم العطاء في بعض الأحيان ويخفق في بعضها الآخر، وكان على هذه الحالة إلى أن أصيب بداء الفالج الذي سبب نظم هذه القصيدة كما في قوله "سبب نظمي إياها أنني أصابني خلط فالج، عجز علاجه كل معالج؛ إذ أبطل نصفي، وتحير فيه وصفي، فلما أيسست من نفسي وقاربت حلول رمسي، تذكّرت في ساعة سعيدة أن أصنع قصيدة في مدح خير البرية، فصحّ العزم والنية، وشرعت في امتداح المصطفى ورجوت به البرء والشفاء، فأعاني ربي ويسر عليّ طلبي، فلما ختمتها رأيت في منامي المصطفى التهامي قد أتى إليّ، ومزبيده المباركة عليّ، فعوفيت لوقتي، وعدت لما كان من نعتي"^(٥)

تعتبر بردة المديح أكثر مدائح البوصيري رواجاً في سوق الأدب، وأعظمها إقبالاً بين الدارسين والباحثين؛ لأنه لم يحظ نص شعري أو نثري في تاريخ الأدب العربي على مرّ عصوره الممتدة من العهد الجاهلي، وحتى العصر الحديث بالاهتمام على جميع المستويات الرسمية والشعبية والأكاديمية، بمثل ما حظيت به هذه البردة؛ حيث بها تغنى المنشدون، وعارضها الشعراء، وتفنن في شرحها الشارحون، وتبارى الخطاطون في كتابتها بجميع الخطوط، والقصاص في روايتها، وتسابق الطلاب والباحثون لدراستها، ومع ذلك فإنها لم تسلم من نقد النقاد، وتقول المعرضين والمنكرين، إلا أنها ما زالت بسحرها تستولي على القلوب والأفئدة وتغلب لب العارفين وأهل الوجد والذوق^(٦)، ومطلعها:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِي بِذِي سَلَمٍ	مَزَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مَقْلَةٍ بِدَمٍ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ كَاطِمَةٍ	وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلُمَاءِ مِنْ إَضْمٍ
فَمَا لِعَيْنِكَ إِنْ قُلْتَ أَكْفَا هَمَّتَا	وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ اسْتَفِيقَ هِمٍ
أَيُّخْسَبُ الصُّبُّ أَنَّ الْخُبَّ مُنْكَتِمٌ	مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَمَضْطَرِمٍ
لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تُرَفِّ دَمْعاً عَلَى طَلَلِي	وَلَا أَرَقْتَ لِذِكْرِ الْبَايِ وَالْعَلَمِ
فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبّاً بَعْدَ مَا شَهِدْتَ	بِهِ عَلَيْكَ عَدُولَ الدُّمُغِ وَالسَّقَمِ
وَأُثْبِتَ الْوَجْدُ خَطِيءَ غَبْرَةٍ وَضَيَّ	مِثْلَ النَّهَارِ عَلَى خَدِّكَ وَالْعَنَمِ
نَعَمْ سَرَى طَيْفٌ مِنْ أَهْوَى فَأَرْقِنِي	وَالْحُبُّ يَغْتَرِضُ اللَّذَاتِ بِالْأَلَمِ
يَا لَائِي فِي الْهَوَى الْعُدْرِي مَغْزِرَةٌ	مَتَى إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تُلِمِ

وهكذا تتوالى بقية الأبيات في ديباجة القصيدة إلى أن بلغت مائة وستين (160) بيتاً؛ كما نفهم ذلك في قوله:

أُبَيَّنَّا قَدْ أَنْتَ سِتِينَ مَع مِائَةٍ * فَزَجَّ بِهَا كَرْتَنَا يَا وَاسِعَ الْكَرَمِ

وفي بعض النسخ تبتدئ القصيدة ببيت مشتمل على الحمد لله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وهو:

أَلْخَفْدُ لِلَّهِ مُنْثِي الْخَلْقِ مِنْ عَدَمٍ * ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ فِي الْقَدَمِ

وثبت أنه ليس منها ولكنه زيد عليها لما جرت به عادات العرب من افتتاح قصائدهم بذكر لوازم العشق وذكر الأحبة وديارهم ومقاساة الأحران وتحمل مكاره الفراق والوقوف على الأطلال، ويسمون ذلك غزلا وتشبيها؛ وهذا الصنيع يعد من حسن المطلع لاهتمامهم بشأن العشق واعتنائهم شدائده حتى قال بعضهم إن الشعر لا يبدأ بالبسملة والحمدلة⁽¹⁰⁾ ولكن يبدأ بالوقوف على الأطلال وتجريد شخص خيالي يحاوره، وإلى هذا الاتجاه ذهب البوصيري في مطلع البردة. كما زيد عليها في خاتمتها بيت يكرر إثر كل بيت في هذه القصيدة بنغمة موسيقية مطربة تبعث في النفس حيوية ووجدانا وهو:

مَوْلَايَ صَلِّ وَسَلِّمْ دَائِمًا أَبَدًا * عَلَى حَبِيبِكَ خَيْرَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ

وتشتمل قصيدة البردة على أحد عشر فصلا وهي⁽¹¹⁾:

- (١) الحمد والثناء على الله تعالى، 1
- (٢) الغزل أو الوقوف على الأطلال 2-13
- (٣) التحذير من هوى النفس، 14-29
- (٤) مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، 30-59
- (٥) مولده صلى الله عليه وسلم، 60-73
- (٦) معجزاته صلى الله عليه وسلم، 74-89
- (٧) القرآن الكريم، 90-106
- (٨) الإسراء والمعراج، 107-119
- (٩) جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وغزواته، 120-141
- (١٠) التوسل والتشفع، 142-153
- (١١) المناجاة والتضرع إلى الله، 154-162

قيل إنها سميت بالبردة؛ لأنه لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه لم يمسح الرسول بيده جسده فحسب، بل لقه بعد المسح في بردته⁽¹²⁾؛ فلذلك سميت القصيدة بالبردة كتسمية أختها (بانة سعاد...) التي امتدح بها كعب بن زهير الرسول صلى الله عليه وسلم عند تمثله بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام فخلع عليه بردته تقديرا لهذه القصيدة وتشريفا له. وقيل إنها سميت بالبردة تبركا ببردة كعب بن زهير⁽¹³⁾. وذهب الآخرون إلى أنها سميت بالبرأة؛ لأن العلة الأساسية في نظمها تتمثل في طلب البرأة والتشفي مما أصيب به البوصيري من مرض الفالج الذي استصعب عليه شفاؤه واستعوصت برأته فقصد نظم هذه القصيدة ليمتدح بها النبي صلى الله عليه وسلم، لعلها تسبب له الشفاء من الداء العضال؛ فبينما انتهى من نظمها وغلب على عينيه، رأى في منامه الرسول الأعظم محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ومسح جسده بيده الشريفة، فبرئ وعوفي من المرض⁽¹⁴⁾؛ ولعله يشير إلى ذلك بقوله:

كَمْ أَبْرَأْتُ وَصَبَّأْتُ بِاللُّمْسِ رَاحَتَهُ * وَأَطْلَقْتُ أَرْبَا مِنْ رِنْقَةِ اللَّمَمِ

٣/ عرض الأبيات في وصف القرآن الكريم:

دَعْنِي وَوَصِّفِي آيَاتِ لَهُ ظَهَرَتْ
فَالدُّرُ يُزَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظَمٌ
فَمَا تَطَاوُلَ أَمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى
آيَاتِ حَقِّ مِنَ الرَّحْمَنِ مَخْدُتُهُ
لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهِيَ تُخَيِّرُنَا
ذَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجَزَةٍ
مُحْكَمَاتٌ فَمَا تُبْقِيَنَّ مِنْ شَيْءٍ
مَا حُورِنَتْ قَطُّ إِلَّا عَادَ مِنْ حَرْبٍ
رَدَّتْ بِلَاغَتُنَا دَعَاؤِي مُعَارِضُهَا
لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدٍ
فَمَا تَعَدُّ وَلَا تُحْصِي عَجَائِبُهَا
قَرَّتْ بِهَا عَيْنٌ قَارِبَهَا فَقُلْتُ لَهُ
إِنْ تَلَّهَا جِبَقُهُ مِنْ حَرِّ نَارٍ لَطَى
كَأَنَّهَا الْخَوْضُ تَبَيَّضَ الْوُجُودُ بِهِ
وَكَالْبَصْرَاطِ وَكَالْمُيَّزَانِ مُعْدَلُهُ
لَا تَعْجِبْنِ لِحُسُودِ رَاحٍ يُنَكِّرُهَا
قَدْ تَنَكَّرَ الْعَيْنُ ضَوْءُ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ

ظَهَرَتْ نَارُ الْقُرَى لَيْلًا عَلَى غَلَمٍ
وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظَمٍ
مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشَّيْمِ
قَدِيمَةُ صِفَةِ الْمُوصُوفِ بِالْقَدَمِ
عَنِ الْمَعَادِ وَعَنِ عَادٍ وَعَنْ إِزْمٍ
مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدِمِ
لِإِذِي شَفَاقٍ وَمَا تُبْقِيَنَّ مِنْ حِكْمٍ
أَعْدَى الْأَعَادِي إِلَيْهِ مُلْقِي السَّلَمِ
رَدَّ الْغَيُورِ يَدَ الْجَانِي عَنِ الْحَرَمِ
وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الْحُسْنِ وَالْقِيمِ
وَلَا تُسَامُ عَلَى الْإِكْتَارِ بِالسَّامِ
لَقَدْ ظَفِرَتْ بِحَيْلِ اللَّهِ فَاغْتَصِمِ
أَطْفَأَتْ حَرَّ لَطَى مِنْ وَرْدِهَا الشَّيْمِ
مِنَ الْعَصَاةِ وَقَدْ جَاوَوْهُ كَالْحُخْمِ
فَالْقَسَطُ مِنْ غَيْرِهَا فِي النَّاسِ لَمْ يَفْمِ
تَجَاهَلًا وَهُوَ عَيْنُ الْخَادِقِ الْفَهْمِ
وَيُنَكِّرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

٤/ تحليل الأبيات ودراستها:

وردت هذه الأبيات في وصف القرآن الكريم في الفصل السادس من قصيدة بردة المديح: وهو الذي يلي فصل معجزات الرسول (صلى الله تعالى عليه وسلم. وقد وفق الشاعر في هذا الترتيب لكون القرآن الكريم معجزة الرسول الكبرى.

استهل الشاعر هذا الفصل بالأمر (دعني) الموجه إلى شخص خيالي: وهو من الأساليب التي تستعمل للتخلص من موضوع لآخر في الشعر العربي، يطلب به الشاعر من مخاطبه-بعد بيان ما سرد له من معجزاته صلى الله عليه وسلم- أن يستصحبه مصغيا لوصف أعظم معجزاته وأجلها الذي يتمثل في آيات نزلت عليه وهي متضحة اتضاح الشمس في كبد السماء أو هي ظاهرة ظهور نار القرى الموقدة على ذروة جبل في ليلة حالكة: وهذه الآيات شبيهة-في حالة انتظامها وعدمها- للدر واللؤلؤ اللذين يزدادان حسنا وجمالا عند كونهما منسقين، كما لا ينقص قدرهما ولا يعيبهما انتشارهما وعدم انتظامهما: بمعنى أن هذه الآيات القرآنية جميلة ورائعة ومنساعة عند ما ترتل بالترتيب حسب تنزيلها

وليست هي بمعيبة ومختلة ومنقوصة القدر إذا جُرئت للترتيل حسب الاحتياجات والاستشهاد
 فبناء على هذا، لا تغاير صفة القرآن الكريم عند كونه مجملا صفته عند كونه غير مجمل.
 وهذه الآيات المشبهة بالذَرَر لا يدرك غاية وصفها لسان أي واصف، ولا يبلغ كنه مجدها قلم كاتب؛
 لأنها أفرغت في قوالب الأخلاق النبيلة ومزايا الخصال الحميدة؛ بل إنها في كثرتها وجمالها
 القيم والمثل العليا كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها؛ فهذا ما جعل الشاعر ينفي عن نفسه تطاول
 أماله للوصول إلى كنه ما فيها من عظمة الأخلاق والشم.

وكان الشاعر تخيل سؤال المخاطب عن ماهية هذه الآيات للوقوف على حقيقتها والكشف عن
 قيمتها فيجيب عن ذلك أنها آيات موصوفة بحق لا يتوغل إليها الباطل؛ وهي محدثة من الرحمن من
 حيث أنها منزلة منه أو هي كلامه؛ فهذه الصفة "محدثة" قد ثبتت في ذات القرآن الكريم كما في قوله
 تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخَدَّبٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أي إنزاله (الشعراء: 5)، وهي
 قديمة بمعنى أنها قائمة بذاته تعالى؛ والقدم ضدّ الحدث والموصوف بالقدم هو الله تعالى لأنه الأول
 بلا بداية والآخر بلا نهاية^(١٥). فالقرآن الكريم كلام الله تعالى بألفاظه وحروفه ومعانيه. منه بدأ وذلك
 بظهوره، وإليه يعود عند رفعه من الصدور وبطون المصاحف في آخر الزمان؛ فهو كلام تكلم الله تعالى
 به، وسمعه منه جبريل عليه السلام، وأنزله على محمد صلى الله عليه وسلم؛ وهو من جملة
 كلامه الذي هو صفة من صفاته فليس مخلوقا منه كما ذهب إليه بعض المتكلمين من فلاسفة
 التوحيد في عقيدة مخالفة لعقيدة أهل السنة والجماعة، وقد كشف عن ذلك الطحاوي رحمه الله
 تعالى في عقيدته المشهورة بـ"أن القرآن كلام الله. منه بدأ بلا كيفية قولاً. وأنزله على رسوله وحياً.
 فصدّقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة: ليس بمخلوق ككلام البرية"^(١٦).
 فبناء على ما تقدّم نرى أن في وصف هذه الآيات بالقدم معنيين^(١٧)؛ أحدهما: أنه غير مخلوق، كما
 تقدّم؛ وأن جنس الكلام في حق الله تعالى قديم لم يزل متكّماً متى شاء وكيف شاء ويكلم من عباده
 من شاء كما ثبت ذلك في ثنايا النصوص القرآنية.

وثانيهما: أن القرآن معنى، أو معنى وحروف تكلم الله بها في الأزل، ثم لم يتكلم بعدها؛ وبعد هذا من
 بدع الأشاعرة ومن وافقهم من أهل الكلام، وإنما أرادوا بهذا القول الخروج من بدعة المعتزلة
 والجهمية القائلين بخلق القرآن والأول أصحهما لأن الكلام يكون منطقياً جزءاً من صاحبه
 والدليل على أن هذه الآيات كلام الله وليست من كلام البشر كونها مسايرة مع روح كل عصر
 وزمان، وكونها صالحة لكل أمر ومكان؛ تناولت أحداث الغابر من الزمان وقصتها أحسن القصص
 حيث لا تترك فيها ربياً وغموضاً؛ كأن القارئ لهذه الآيات في وصف الأحداث والوقائع الغابرة شاهد لها
 ببنت عينيّه؛ فنجد أمثال ذلك متعددة بين دفتي القرآن الكريم من قصص الأنبياء وأقوامهم، منها^(١٨):

- (١) قصة قوم لوط الذين أرسل الله عليهم حاصباً.
- (٢) وقصة قوم مدين وثمود الذين أخذتهم الصيحة.
- (٣) وقصة قارون الذي طغى فحسب به وبيداره الأرض.

١٤٣٧هـ (٤) وقصة قوم نوح الذين أغرقهم الله في الطوفان، وقصة قوم فرعون الذين أغرقهم الله في اليم.

(٥) وقصة طالوت الذي زاده الله بسطة في العلم والجسم.

(٦) وورود قصة أصحاب الأخدود في سورة البروج.

(٧) وورود قصة أصحاب الجنة بأرض الصريم في اليمن في سورة القلم.

(٨) كما توجد قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح في سورة الكهف.

وهذه القصص المتقدمة وغيرها ساقها نصوص القرآن الكريم باختلاف مواضعها لتكون موعظة وعبرة للأجيال المتعاصرة؛ وليس إعجاز هذه الآيات في الأحداث الغابرة وحدها بل تعدت إلى ما هو أكبر منها إعجازاً؛ وهو إخبارها عما سيحدث في الأيام المستقبلية؛ وذلك كإخبارها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم عما سيكون من سؤال نفر من قرين عن الروح تعجيزاً للنبي صلى الله عليه وسلم فأطرق ساعة ثم أجاب إنه من أمر ربه، وعن غلبة الروم على أعدائها المجوس، وعن مصير كل خلق بعد فناء الدنيا.

دامت لدينا هذه الآيات- التي هي معجزة كبرى للنبي صلى الله عليه وسلم- ولا نزول زوال غيرها من المعجزات التي أعطيت الأنبياء والرسل الكرام قبل مجيئه عليه الصلاة والسلام؛ وهذه المعجزات قد زالت واندرست بمضي أصحابها عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم خلاف القرآن الذي تكفل الله برعايته ولم يزل منذ نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم باقياً في الصحف وخالداً في الصدور إلى قيام الساعة؛ فهذا تفوق على جميع المعجزات التي أتت بها الأنبياء والرسل الكرام والتي لم تبق بعد وفاتهم.

وهي- أي هذه الآيات- محكمات في جميع الأمور وهي تستعمل في نصرة أهل الحق ولدحض أهل الباطل، وهي لا تبقى أي خلاف أو شبهة لظهور براهينها وثبوت حججها وقوة دلائلها. وما حوربت هذه الآيات أو جوحدت في أفكارها ودقائق معانيها وإعجاز نظمها إلا ويرجع أعدى أعاديها مستسلماً منقاداً لها لعجزه عن معارضتها فيشهد بعد ذلك شهادة الوليد بن المغيرة ببلاغة القرآن الكريم حيث يقول "إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه وما هو بقول البشر" ناقضاً بذلك رأيه عند ما أكل الحقد قلبه⁽²⁰⁾ بأنه ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (المدر: 25).

وردت بلاغة هذه الآيات الدعوى الصادرة من معارضتها بأنهم يستطيعون أن يأتوا بمثلهما لما أعطوا من تفنن القول في الشعر والنثر، وأن القرآن جاء بهذا اللسان العربي، وعلى طريقة العرب في الأداء والتعبير، لكن هيات أن ترقى أساليبهم إلى أسلوبه؛ مع كثرة ما جاءوا به من محاسن الشعر وعيون النثر؛ إذ إن لغة القرآن تدفقت بأسلوب معجز لا عهد لأحد بمثله، فلا هو موزون مقفى، ولا هو موصع مسجع، يتجزأ فيه المعنى في عدد من الفقر، ولا هو مرسل يطرد أسلوبه دون تقطيع أو تسجيع، وإنما هو آيات مفصلة متناسقة تروع الخيال بما فيها من تصوير باهر، وتأخذ بالأفئدة والألباب بما فيها من منطق أسروتهز النفوس من الأعماق بما لها من وقع جمع بين الجمال والجلال⁽²¹⁾؛ فهذه التحديات



البلاغية والمخالب التعبيرية انخفضت رقاب المدعين فعجزوا عن إتيان ما تحداهم الله به من القراءة (٢) كما في قوله تعالى ﴿ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَا ﴾ (٣) كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا. (الإسراء: 88) (٤)

وتشبه معاني هذه الآيات موج البحر في كثرتها ومددها حيث لا يحيط بها عالم ولا يبلغ غور قصده (٥) وحقيقة مغزاها مفسر؛ وهي تفوق جوهر هذا البحر حسنا ورفعة وقيمة لأنها مع كثرتها لا توصف بالملالة والسامة عند قراءتها وسماعها، وعجائنها لا تعد ولا تحصى؛ بل تبدو المسرة والبهجة والأريج (٦) في عين قارئها فيظفر بنفحاتها ويُجزى بكل حرف تلا منها عشر حسنات.

وإن تليت هذه الآيات خوفا من دخول النار استجيب الدعوة، وإن تليت لتحصيل مطلب قضاه الله وإن تليت لتسيير الجبال أو تقطيع الأرض أو تكليم الموتى تحقق المطلوب كما في قوله ﴿ وَلَوْ أَنْ وُفِّرْنَا سِوَاكَ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا... ﴾ (الرعد: 31) وإنما هذه الآيات كالحوض الذي إذا أتاه ولجأ إليه العصاة المذنبون سود الوجوه مغبري المناظر ظلت وجوههم مبيضة تبدو فيها علامات الفرح والسرور. وهي أيضا كالصراف والميزان في استقامتها واعتدالها فلا زغ فيها ولا انحراف وهي أعدل وأقسط في حكمها فلا يعادلها أي عدول.

وقد تجد لها حسودا منكرا ما قد خلق الله عليها من الأوصاف وما أعطاه الله من المكرمات التي لا يجوز أن يتجاهلها منصف أو يربب فيها متشكك، فلا تعجب في أمر مثل هذا الحسود المنكر ولا تذهب نفسك حشرات عليه مع ما كان مبلغه من العلم والمعرفة! فإن الشمس مهما تشع وبظهور ضوؤها لذئ العينين ويتوقد توهجها بين الأحياء، فقد يجعد انجلاءها من العمى والرمد كما قد ينكر طعم الماء العذب من السقم وضعف الذوق.

تعقيبات فنية:

١/ الأسلوب بين الرقة والقوة:

تضم القصيدة -برمتها- عدة مواقف؛ ومن الطبيعي أن تختلف أساليب الأداء (٢٢) في مختلف المواقف في قصيدة واحدة؛ فيطالب بعض هذه المواقف الرقة والسلاسة والعذوبة وبعض المواقف تناسها القوة والخشونة والغلظة. يتبين في هذه القصيدة (بردة المديح) اختلاف الأساليب بين المواقف التي تضمنتها، ففي هذه الأبيات توخى الشاعر رقة الأسلوب التي تسير روح الوصف والمدح بعيدا فيما كل البعد عن القوة والخشونة؛ فهي منظومة في أسلوب رقيق عذب سلس رقيق ينساب بسهولة انسيابا، والمعجم الشعري فيها واضح يبين ليست به غرابة ولا غموض.

٢/ التصوير الأدبي:

يبدو للقارئ لهذه الأبيات المتقدمة بعض الصور البيانية الرائعة، منها:

(١) ظهور نار القرى...

(٢) فالدريزداد حسنا...

(٣) لها معان كموج البحر...

(٤) كأنها الحوض تبيض الوجوه به...

(٥) وكالصراط وكالميزان معدلة...

٣/ التناص في القصيدة:

تأثر الشاعر في هذه الأبيات تأثراً كبيراً بالنصوص المختلفة التي تناقش القضايا المختلفة بحيث لا يكتفى على القارئ بأنها ترجع إلى نص سابق معين في حدث معين لا يعرف أصله إلا من له إلمام به؛ ومما يصدق هذه الدعوى "قديمة صفة الموصوف بالقدم" وهي صفة من الصفات الواجبة في حقّه تعالى، وقوله "...عن المعاد وعن عاد وعن إرم" تلميحاً لبعض الأخبار أو القصص التي قصّ علينا القرآن الكريم لهدف الاتعاظ والعبرة من الأجيال الماضية. "...ففاقت كل معجزة من النبيين" حسب الضوء الذي أتى به القرآن الكريم في إثبات المعجزات لبعض الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. "لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم" يلمح بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا...﴾ (آل عمران: 103) وقوله "إن تتلها خيفة من حرّ نار لظى أطفأت نار لظى..." أخذ هذه الفكرة من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لَلَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا...﴾ (الرعد: 31).

الغائمة:

قد اضطلع الشعراء بوصف القرآن الكريم بما فيه من الإعجاز العلمي واللغوي والأدائي، وبما أودع الله فيه من أسرار ودقائق لا تعثر عليها في غيره من الكتب السماوية وهو الحاوية الوحيدة التي فيها القيم والمثل العليا، والموسوعة الكبرى في الأوامر والنواهي، قد عجز عن الإتيان بمثله منكرٌ ومعارض؛ وهذه الأفكار كلها صاغها البوصيري في هذه الأبيات في وصف القرآن الكريم صياغة علمية أدبية تاريخية بأسلوب رقيق لا غموض فيه ولا تكلف، وهو موثق بالبراهين والحجج التي تقامع دعوى المنكرين وتفند أكاذيب الجاحدين له.

الهوامش والمراجع:

- (١) شرف الدين محمد البوصيري: منشورة على الشبكة العنكبوتية غوغل، تاريخ الإطلاع ٢٩/٦/٢٠١٥م
- (٢) المرجع نفسه.
- (٣) راجع: قراءة في بردة الإمام البوصيري: معانيها، وظروف إنشادها، وشخصية مبدعها: دراسة وتحليل وهي عبارة عن رسالة قدمها صبيحة بنت عبد الغني وحليمة بنت عبد الله، وإبراهيم أحمد الغازي، كلية التربية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
- (٤) المرجع نفسه
- (٥) الإمام شرف الدين محمد البوصيري، المرجع السابق.
- (٦) المرجع نفسه.
- (٧) المرجع نفسه.
- (٨) حاشية الباجوري على البردة للشيخ الإسلام إبراهيم الباجوري على بردة المديح لأبي عبد الله محمد بن سعيد البوصيري، ط٤، ١٣٧٠هـ-١٩٥١م، ص٤-٥
- (٩) قراءة في بردة الإمام البوصيري، معانيها...، المرجع السابق.
- (١٠) حاشية الباجوري على البردة...، المرجع السابق، ص٥
- (١١) قراءة في بردة الإمام البوصيري، معانيها...، المرجع السابق.
- (١٢) المرجع نفسه.
- (١٣) حاشية الباجوري على البردة...، المرجع السابق، ص٤
- (١٤) المرجع نفسه.
- (١٥) راجع الدرر اليتيمة المعروفة بقصيدة البردة للإمام شرف الدين محمد البوصيري...، طبع بمطبعة الباب الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٤٦هـ.
- (١٦) حاشية الباجوري على البردة...، المرجع السابق، ص٥٨
- (١٧) حكم وصف القرآن بأنه كلام الله القديم: الإسلام سؤال وجواب، أشرف عليه الشيخ محمد صالح المنجد: عبارة عن مقالة نشرت في الموقع الإلكتروني islamqa.info بتاريخ يوم الثلاثاء ١٣/رمضان/١٤٣٦هـ-٣٠/يونيو/٢٠١٥م
- (١٨) المرجع نفسه.
- (١٩) انظر المصحف الإلكتروني-أرقام قرآنية منشورة في الموقع www.E-Quran بتاريخ ٣٠/يونيو/٢٠١٥م
- (٢٠) صلاح الدين محمد عبد التواب، الأدب الإسلامي في عصره الأول، ١٤١٢هـ ١٩٩١م، ص٨٦
- (٢١) المرجع نفسه.
- (٢٢) زكريا عبد المجيد النوتي، بردة كعب بن زهير: قراءة في النص الشعري، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص٣٥